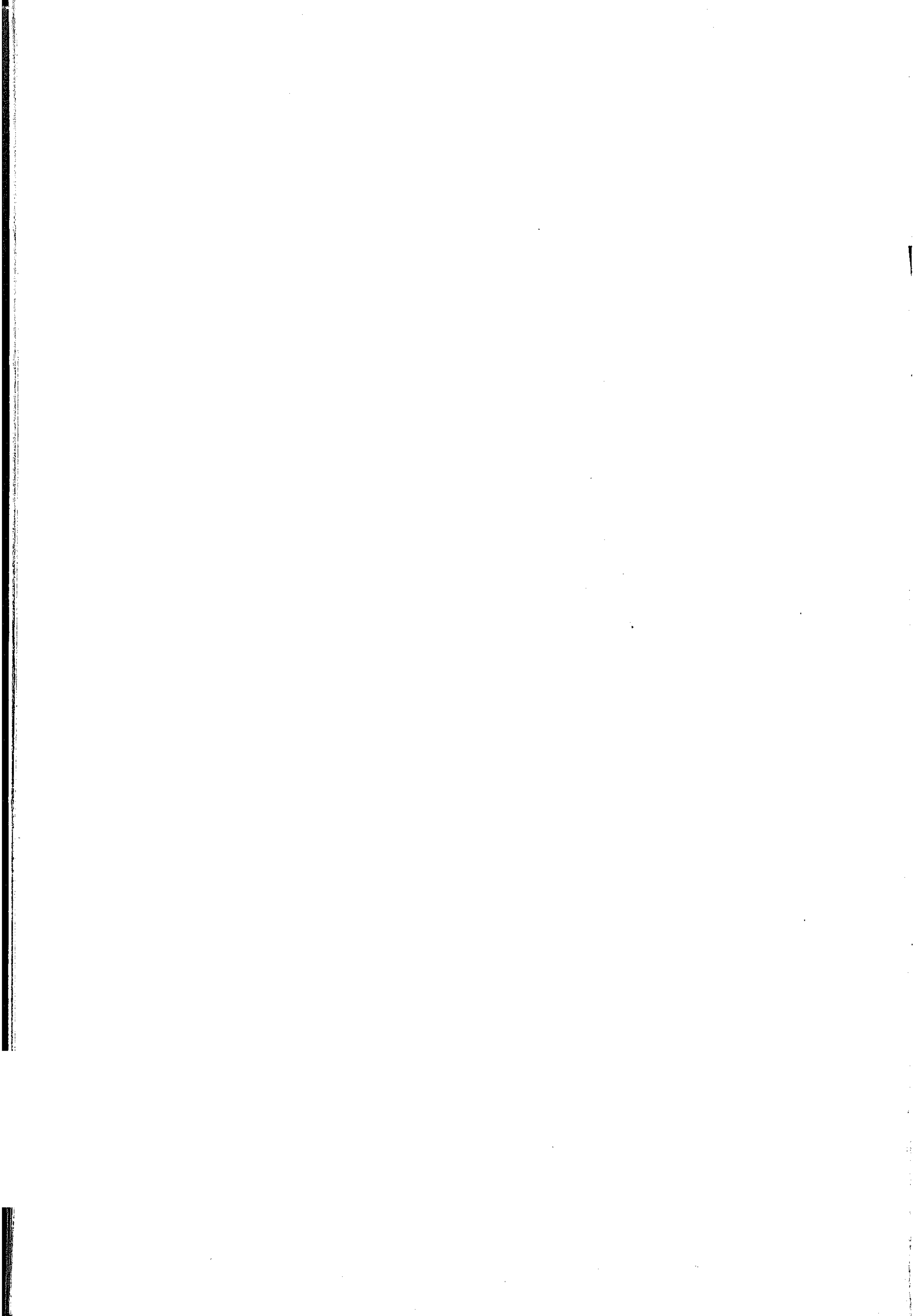


اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فهمي

الاسكندرية

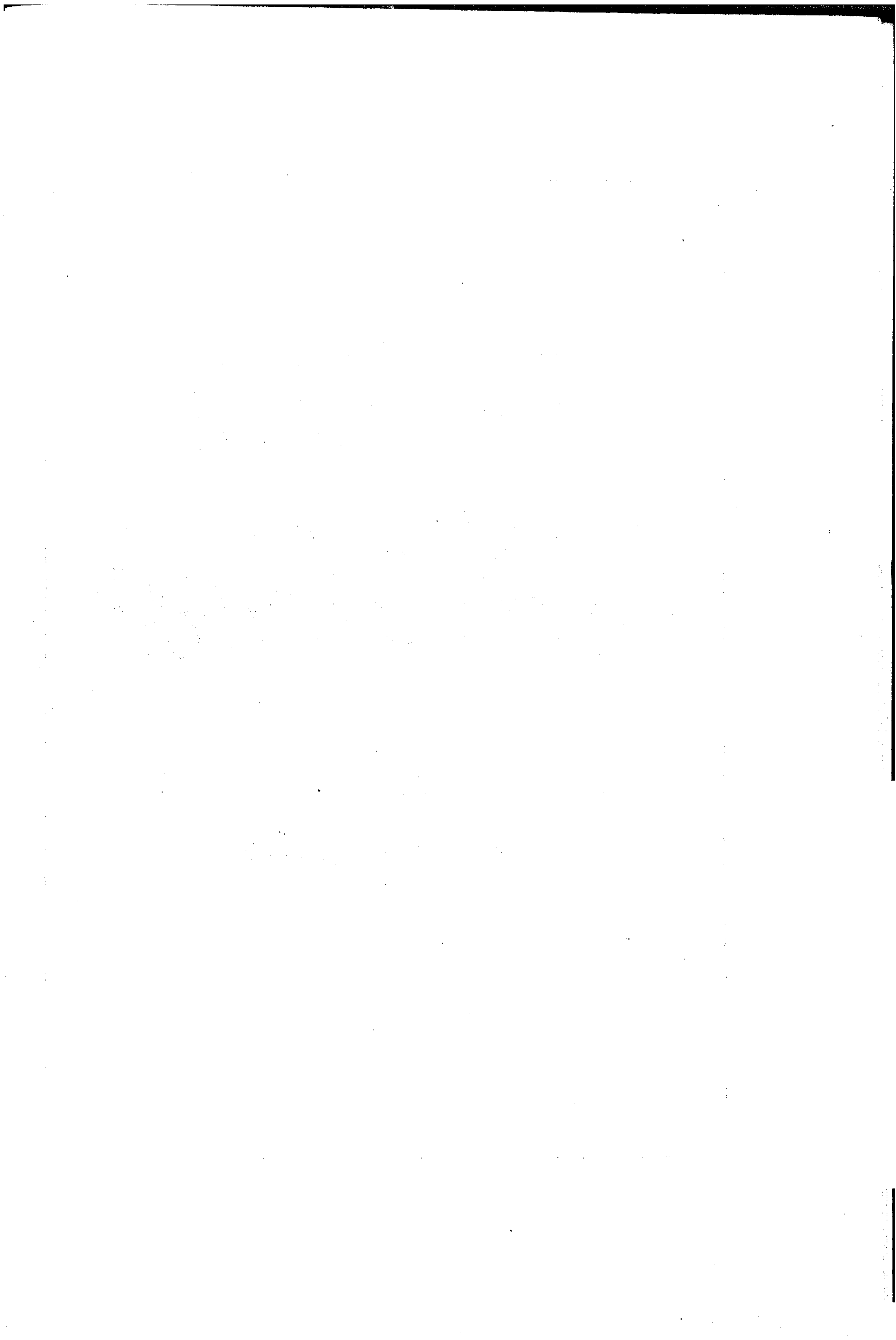


1911

التفكير
فرضية إسلامية

بقلم
عباس محمود العقاد

دار الهلال



فريضة التفكير في كتاب الاسلام

من مزايا القرآن الكثيرة مزية واضحة يقل فيها الخلاف بين المسلمين وغير المسلمين لأنها تثبت من تلاوة الآيات ثبوتاً تؤيده أرقام الحساب ودلالات اللفظ اليسير ، قبل الرجوع في تأييدها الى المناقشات والمذاهب التي قد تختلف فيها الآراء ..
وتلك المزية هي التنويه بالعقل والتعويل عليه في أمر العقيدة وأمر التبعة والتكليف ..

ففي كتب الأديان الكبرى اشارات صريحة أو مضمونة الى العقل أو الى التمييز ، ولكنها تأتي عرضاً غير مقصودة وقد يلمح فيها القارئ بعض الأحيان شيئاً من الزرابة بالعقل أو التحذير منه ، لأنه مزلة العقائد وباب من أبواب الدعوى والانكار ..

ولكن القرآن الكريم لا يذكر العقل الا في مقام التعظيم والتبنيح الى وجوب العمل به والرجوع اليه ، ولا تأتي الاشارة اليه عارضة ولا مقتضبة في سياق الآية ، بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة ، وتتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي التي يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله أو يلام فيها المنكر على اهمال عقله وقبول الحجر عليه ، ولا يأتي تكرار الاشارة الى العقل بمعنى واحد من معانيه التي يشرحها النفسانيون من أصحاب العلوم الحديثة ، بل هي تشمل وظائف الانسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها ، وتتعمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص في مواطن الخطاب ومناسباته ، فلا ينحصر خطاب العقل في العقل الوازع ولا في العقل المدرك ولا في العقل الذي يناط به التأمل الصادق والحكم الصحيح ، بل يعم الخطاب في الآيات القرآنية كل ما يتسع له الذهن الانساني من خاصة

أو وظيفة ، وهي كثيرة لا موجب لتفصيلها في هذا المقام المجمل ، اذ هي جميعا مما يمكن أن يحيط به العقل الوازع والعقل المدرك والعقل المفكر الذى يتولى الموازنة والحكم على المعانى والأشياء ..

فالعقل فى مدلول لفظه العام ملكة يناط بها الوازع الأخلاقى أو المنع عن المحذور والمنكر ، ومن هنا كان اشتقاقه من مادة « عقل » التى يؤخذ منها العقل ، وتكاد شهرة العقل بهذه التسمية أن تتوارد فى اللغات الانسانية الكبرى التى يتكلم بها مئات الملايين من البشر . فان كلمة « مايند » Mind وما خرج من مادتها فى اللغات الجرمانية تفيد معنى الاحتراس والمبالاة وينادى بها على العاقل الذى يحتاج الى التنبيه ، ونحسب ان اللغات فى فروعها الأخرى لا تخلو من كلمة فى معنى العقل لها دلالة على الوازع أو على التنبيه والاحتراس ..

ومن خصائص العقل ملكة الادراك التى يناط بها الفهم والتصور ، وهى على كونها لازمة لادراك الوازع الأخلاقى وادراك أسبابه وعواقبه تستقل أحيانا بادراك الأمور فيما ليس له علاقة بالأوامر والنواهي أو بالحسنات والسيئات ..

ومن خصائص العقل انه يتأمل فيما يدركه ويقبله على وجوهه ويستخرج منه بواطنه وأسراره ويبنى عليها نتائج وأحكامه ، وهذه الخصائص فى جملتها تجمعها ملكة « الحكم » وتتصل بها ملكة الحكمة ، وتتصل كذلك بالعقل الوازع اذا انتهت حكمة الحكيم به الى العلم بما يحسن وما يقبح وما ينبغى له أن يطلبه وما ينبغى له أن يأباه ..

ومن أعلى خصائص العقل الانسانى « الرشيد » وهو مقابل لتمام التكوين فى العاقل الرشيد ، ووظيفة الرشيد فوق وظيفة العقل الوازع والعقل المدرك والعقل الحكيم ، لأنها استيفاء لجميع هذه الوظائف وعليها مزيد من النضج والتمام والتمييز بميزة الرشاد حيث لا نقص ولا اختلال ، وقد يؤتى الحكيم من نقص فى الادراك وقد يؤتى العقل الوازع من نقص فى الحكمة ، ولكن العقل الرشيد ينجو به الرشاد من هذا وذاك ..

وفريضة التفكير في القرآن الكريم تشمل العقل الانساني بكل ما
 احتواه من هذه الوظائف بجميع خصائصها ومدلولاتها . فهو يخاطب
 العقل الوازع والعقل المدرك والعقل الحكيم والعقل الرشيد ، ولا يذكر
 العقل عرضا مقتضبا بل يذكره مقصودا مفصلا على نحو لا نظير له في
 كتاب من كتب الأديان ..

فمن خطابه الى العقل عامة - ومنه ما ينطوى على العقل الوازع --
 قوله تعالى في سورة البقرة :

« إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ
 الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ
 فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ
 بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » .

ومنه في سورة المؤمنون :

« وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ »

ومنه في سورة الروم :

« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ
 الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ . وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ،
 وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي
 السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ
 هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فَمَا رَزَقْنَاهُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ
 سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » .

ومنه في سورة العنكبوت :

« وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ » .

ومنه ما يخاطب العقل وينطوي على العقل الوازع كقوله تعالى في سورة الملك :

« وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ » .

وفي سورة الأنعام :

« وَلَا تَقْرَبُوا الْقَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » .

ومنه بعد بيان حق المطلقات في سورة البقرة :

« كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » .

ومنه في سورة يوسف :

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَالِدَارُ الْأَخْرَى خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ » .

ومنه في سورة الحشر ، بيانا لأسباب الشقاق والتدابير بين الأمم :

« تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ » .

وهذا عدا الآيات الكثيرة التي تبثدىء بالزجر وتنتهى الى التذكير بالعقل ، لأنه خير مرجع للهداية في ضمير الانسان ، كقوله تعالى في سورة البقرة :

« أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » .

وكقوله في سورة آل عمران :

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ
وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » .

وكقوله تعالى في سورة المائدة :

« وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوعًا وَعَلْبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
لَا يَعْقِلُونَ » .

وفي سورة الأنعام :

« وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَأَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ »

وفي سورة هود :

« يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي
أَفَلَا تَعْقِلُونَ » .

وفي سورة الأنبياء :

« أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » .

وفي غير هذه السور الكريمة تنبيه الى العقل في مثل هذا السياق يدل
عليه ما تقدم في هذه الآيات ..

ان هذا الخطاب المتكرر الى العقل الوازع يضارعه في القرآن الكريم
خطاب متكرر مثله الى العقل المدرك أو العقل الذي يقوم به الفهم والوعى
وهما أعم وأعمق من مجرد الادراك . وكل خطاب الى ذوى الألباب في

القرآن الكريم فهو خطاب الى اللب - هذا العقل المدرك الفاهم لأنه معدن الإدراك والفهم في ذهن الانسان كما يدل عليه اسمه باللغة العربية ..

« وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ » .
(سورة آل عمران)

« قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ » .
(سورة المائدة)

« الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ » .
(سورة الزمر)

« لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » .
(سورة يوسف)

« يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ » .
(سورة البقرة)

« وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ » .
(سورة البقرة)

« وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » .
(سورة البقرة)

ومن هذه الآيات تتبين ان اللب الذي يخاطبه القرآن الكريم وظيفته عقلية تحيط بالعقل الوازع والعقل المدرك والعقل الذي يتلقى الحكمة ويتعظ بالذكر والذكرى ، وخطابه خطاب لأناس من العقلاء لهم نصيب من الفهم والوعى أوفر من نصيب العقل الذي يكف صاحبه عن السوء ولا يرتقى الى منزلة الرسوخ في العلم والتمييز بين الطيب والخبيث والتمييز بين الحسن والأحسن في القول ..

أما العقل الذي يفكر ويستخلص من تفكيره زبدة الرأي والروية فالقرآن الكريم يعبر عنه بكلمات متعددة تشترك في المعنى أحيانا وينفرد بعضها بمعناه على حسب السياق في أحيان أخرى . فهو الفكر والنظر والبصر والتدبر والاعتبار والذكر والعلم وسائر هذه الملكات الذهنية التي تتفق أحيانا في المدلول - كما قدمنا - ولكنها لا تستفاد من كلمة واحدة تعنى عن سائر الكلمات الأخرى ..

« وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ
الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ » .

(سورة البقرة)

« الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ
فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ »

(سورة آل عمران)

« قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ »

(سورة الانعام)

« يُكْنِثُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ
الشَّمْرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »

(سورة النحل)

« أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ »

(سورة الروم)

« أَنْظِرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ »

(سورة الانعام)

« أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكَوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ
اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ »

(سورة الاعراف)

« قُلِ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ
وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ »

(سورة يونس)

« أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَدَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا
مِنْ فُرُوجٍ »

(سورة ق)

« أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ »

(سورة الفاشية)

« مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِبَيِّنَاتٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا
تُبْصِرُونَ »

(سورة القصص)

« أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا »

تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ»

(سورة السجدة)

« وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ »

(سورة آل عمران)

« أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ »

(سورة المؤمنون)

« كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ »

(سورة ص)

« أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا »

(سورة محمد)

« فَاتَّخَمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّغْبَ يُخْرِبُونَ
بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ »

(سورة الحشر)

« وَبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ »

(سورة البقرة)

« وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ »

(سورة الانعام)

« أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّ مَا

(سورة الرعد)

يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ »

« وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ
يَذَكَّرُونَ »

(سورة النحل)

« أَوْ يَذَكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى »

(سورة عبس)

« فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ »

(سورة النحل)

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى
بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ »

(سورة القصص)

« وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا
تَعْلَمُونَ » .

(سورة البقرة)

« قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ
وَلَمْ يَأْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً
فِي الْعِلْمِ » .

(سورة البقرة)

« وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ
وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » .

(سورة الانعام)

« قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » .

(سورة الزمر)

« يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » .
(سورة المجادلة)

« هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ
لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ
الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » .
(سورة يونس)

« قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عَلِمْتَ
رُشْدًا » .
(سورة الكهف)

« خَلَقَ الْإِنْسَانَ عِلْمَهُ الْبَيَانَ » .
(سورة الرحمن)

« الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .
(سورة العلق)

« وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا
بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ » .
(سورة آل عمران)

بهذه الآيات وما جرى مجراها تقرر ولا جرم فريضة التفكير في
الاسلام ، وتبين منها ان العقل الذي يخاطبه الاسلام هو العقل الذي
يعصم الضمير ويدرك الحقائق ويميز بين الأمور ويوازن بين الأضداد
ويتبصر ويتدبر ويحسن الادكار والرواية ، وانه هو العقل الذي يقابله

الجمود والعنت والضلال وليس بالعقل الذي قصاره من الإدراك انه يقابل الجنون . فان الجنون يسقط التكليف في جميع الأديان والشرائع وفي كل عرف وسنة ، ولكن الجمود والعنت والضلال غير مسقطه للتكليف في الاسلام ، وليس لأحد أن يعتذر بها كما يعتذر للمجنون بجنونه ، فانها لا تدفع الملامة ولا تمنع المؤاخذه بالتقصير ..

ويندب الاسلام من يدين به الى مرتبة في التفكير أعلى من هذه المرتبة التي تدفع عنه الملامة أو تمنع عنه المؤاخذه . فيستحب له أن يبلغه بحكمته ورشده ، ويبدو فضل الحكمة والرشد على مجرد التعقل والفهم من آيات متعددة في الكتاب الكريم يدل عليها قوله تعالى :

« وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا »

ويدل عليها ان الأنبياء يطلبون الرشد ويتغنون علما به من عباد الله الصالحين ، كما جاء في قصة موسى وأستاذه عليهما السلام .. والذي ينبغي أن تثوب اليه مرة بعد مرة أن التنويه بالعقل على اختلاف خصائصه لم يأت في القرآن عرضا ولا تردد فيه كثيرا من قبيل التكرار المعاد . بل كان هذا التنويه بالعقل نتيجة منتظرة يستلزمها لباب الدين وجوهره ويتدربها من هذا الدين كل من عرف كنهه وعرف كنه الانسان في تقديره ..

فالدين الاسلامي دين لا يعرف الكهانة ولا يتوسط فيه السدنة والأخبار بين المخلوق والخالق ، ولا يفرض على الانسان قربانا يسعى به الى المحراب بشفاعته من ولي متسلط أو صاحب قداسة مطاعة ، فلا ترجمان فيه بين الله وعباده يملك التحريم والتحليل ويقضى بالحرمان أو بالنجاة ، فليس في هذا الدين اذن من أمر يتجه الى الانسان من طريق الكهان ، ولن يتجه الخطاب اذن الا الى عقل الانسان حرا طليقا من سلطان الهياكل والمحاريب أو سلطان كهانها المحكمين فيها بأمر الاله المعبود فيما يدين به أصحاب العبادات الأخرى ..

« فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ » .

لا هيكل في الاسلام ، ولا كهانة حيث لا هيكل .. فكل أرض
مسجد ، وكل من في المسجد واقف بين يدي الله ..

ودين بلا هيكل ولا كهانة لن يتجه فيه الخطاب - بداهة - الى غير
الانسان العاقل حرا طليقا من كل سلطان يحول بينه وبين الفهم القويم
والتفكير السليم ..

كذلك يكون الخطاب في الدين الذي يلزم كل انسان طائره في عنقه
ويحاسبه بعمله فلا يؤخذ أحد بعمل غيره :

« وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » و « كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ

رَهِينٌ »

« وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنْ سَعْيَهُ سَوْفَ يَرَى » .

فاذا كان في الأديان دين يجتبي القبيلة بنسبها أو يجتبي المرء قبل
مولده لأنه مولود فيها ، أو كان في الأديان دين يحاسبه على خطيئة ليست
من عمله ، فليس في الاسلام انسان ينجو بالميلاد أو يهلك بالميلاد ، ولكنه
الدين الذي يوكل فيه النجاة والهلاك بسعى الانسان وعمله ، ويتولى
فيه الانسان هدايته بفهمه وعقله ، ولا يبطل فيه عمل العقل أن الله بكل
شيء محيط ، فان خلق الانسان للعقل لا يسلبه القدرة على التفكير ولا
يسلبه تبعه الضلال والتقصير ..

وعلى هذا النحو يتناسق جوهر الاسلام ووصاياه . وتأتي فيه الوصايا
المتكررة بالتعقل والتمييز منتظرة مقدرة لا موضع فيها للمصادفة ولا هي
ما يطرد القول فيه متفرقا غير متصل على نسق مرسوم . فانها لوصايا
« منطقية » في دين يفرض المنطق السليم على كل مستمع للخطاب قابل
للتعليم ، وهكذا يكون الدين الذي تصل العبادة فيه بين الانسان وربه
بغير واسطة ولا محاباة ، ويحاسب فيه الانسان بعمله كما يهديه اليه
عقله ، ويطلب فيه من العقل أن يبلغ وسعه من الحكمة والرشاد ..

الموانع والاعذار

حين يكون العمل بالعقل أمرا من اوامر الخالق يمتنع على المخلوق أن يعطل عقله مرضاة لمخلوق مثله ، أو خوفا منه ، ولو كان هذا المخلوق جمهرة من الخلق . تحييط بالجماعات وتتعاقب مع الأجيال ..

والموانع التي تعطل العقل من هذا القبيل كثيرة يستقصيها القرآن الكريم كما استقصى خطاب العقل بجميع وظائفه وملكاته ، ولكنها قد تتجمع في ثلاثة موانع كبرى بمثابة الأصول التي تتشعب منها الموانع المختلفة ، فمن سلم منها أوشك أن يسلم من كل مانع يحجر على عقله . ويأخذ السبيل على تفكيره فلا يهتدى الى رأى سواه ..

أكبر الموانع في سبيل العقل عبادة السلف التي تسمى بالعرف ، والاقتراد الأعمى بأصحاب السلطة الدينية ، والخوف المهين لأصحاب السلطة الدنيوية ..

والاسلام لا يقبل من المسلم أن يلغى عقله ليجرى على سنّة آبائه وأجداده ولا يقبل منه أن يلغى عقله خنوعا لمن يسخره باسم الدين في غير ما يرضى العقل والدين ولا يقبل منه أن يلغى عقله رهبة من بطش الأقوياء وطغيان الأشداء ، ولا يكلفه في أمر من هذه الأمور شططا لا يقدر عليه اذ القرآن الكريم يكرر في غير موضع ان الله لا يكلف نفسا ما لا طاقة لها به ، ولا يطلب من خلقه غير ما يستطيعون ..

« لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا » .

(سورة البقرة)

« لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » .

(سورة الانعام والاعراف والمؤمنون)

« لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِضْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ . »

(سورة البقرة)

وما من أحد يهتدى بعقله لايسعه أن يرى الصواب وأن يكف عن الخطأ . فاذا قسر على نبذ الصواب واقتراف الخطأ ففى وسعه أن ينجو بنفسه من القسر حيث كان ، وفى وسعه اذا حيل بينه وبين النجاة أن يلقى الضرر الذى يجنيه عليه من يهدر كرامته ويقتل ضميره . فذلك لاريب أهون الضررين فى هذه الحال ، ولا معنى للدين ولا للخلق اذا جاز للناس أن يخشوا ضرا يصيب أجسامهم ولا يخشوا ضرا يصيبهم فى أرواحهم وضائرتهم ، وينزل بحياتهم الباقية الى ما دون الحياة التى ليس لها بقاء وليس فيها شرف ولا مروءة ..

وهذه الموانع كلها - موانع العرف والقدرة العمياء والخوف الدليل - انما تقوم وتبقى قائمة ما هان على الانسان أن يعيش بغير عقل يرجع اليه فى أكرم مطالبه « الانسانية » وهو صلاح ضميره . ولكنها تزول على الأثر يوم يرجع الى عقله أمام كل عقبة من عقباتها ، وقد يشق عليه أن يذل تلك العقبات أو يناجزها ، ولكنه حق العقل عليه ولا بد من حق تهون من أجله المشقة ، لأنها أهون من سلب الانسان فضيلته العليا وارتكائه الى حياة لا تعقل أو حياة تعقل ولكنها تؤثر الحطة على علمها بما هو أرفع منها ..

ان حق العقل فى الاسلام يقاس بكل قوة من قوى تلك الموانع التى ترصد له وتصده عن طريقه ، وأولها وأقواها فى صدر الاسلام قوة العرف أو عبادة السلف ، لأن العرف فى الجاهلية بلغ مبلغ العبادة فى المهابة والرعاية وتسخير النفوس لحكمه بما يفرضه عليها من العادات ، وما هى فى الواقع

الا ضرب من العبادات يملك الانسان في جميع أوقاته وعلاقاته ، حيث تتراخى عنه أحيانا سطوة العبادات الدينية ، ولعل العبادات الدينية لم يكن لها من سطوة في عصور الجاهلية وما شابهها الا لأنها تستمد تلك السطوة من العادات ..

كانت الدعوة الاسلامية تثير أهل الجاهلية وتحققهم أشد الحق على الرسول القائم بها صلوات الله عليه . وأشد ما كان يحققهم من دعواته انه يسفه بها أحلام الآباء والأجداد . فقلما كانوا يقولون في مقام الغضب منه والتحريض عليه : انه يسفه أحلامنا ويستخف بعقولنا ، وانما كان غضبهم كله منه وتحريضهم كله عليه اذ يقولون عنه انه يسفه أحلام آبائنا ويستخف بعقول أسلافنا ، ويقول عن أصول النسب التي يفخرون بها انها كانت على ضلالة وكانت لا تعقل ما تصنع من أمور الدين ..

والاسلام حين يأبى على الانسان أن يعنو بعقله كله لهذه السطوة الجائحة انما يعطى العقل حقه في مقاومتها ولا يكتفى بأن يفرض عليه واجب المقاومة ، وانما يمدده بالحجة التي تعينه عليها حيث لا حجة له بين يديها . فهو يكلفه ويعينه وهو يثيره ويضع في يده السلاح الذي يشحذ في ثورته ، فهو نصير معين يلقي العبء ويعطى المدد الذي يعينه عليه ..

وحين يقول الاسلام للانسان .. يجب عليك أن تفتح عينك ولا تنقاد لما يوبقك مغمض العينين ، فكأنه يقول له .. يحق لك أن تنظر في شأنك ، بل في أكبر شأن من شئون حياتك ، ولا يحق لآبائك أن يجعلوك ضحية مستسلمة للجهالة التي درجوا عليها ..

وان الاسلام نيا بى على المرء أن يحيل أعذاره على آباءه وأجداده ، كما يأبى له أن تجمال عليه الذنوب والخطايا من أولئك الآباء والأجداد ، وانه ليتى على الذين يستمعون الخطاب أن يغفوا أنفسهم من مؤنة العقل لأنهم ورثوا من آباؤهم وأجدادهم عقيدة لا عقل فيها ..

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ